رؤية العالم وانعكاساتها على علم الاقتصاد

أ. الزين عبد الله يوسف أحمد•

المستخلص

تحاول هذه الورقة أن تلقي الضوء على ماهية رؤية العالم (الغربية والإسلامية) وعلاقتها بعلم الاقتصاد وذلك من خلال تبيان بعض الأسس والمبادئ والافتراضات التي تشكلت في ظل رؤية العالم الغربية وذلك من خلال فلسفة المنهجية الوضعية. وبالتالي فإنَّ الورقة تركز على بعض جوانب الاقتصاد الرأسمالي، ومن ثَمَّ على بعض جوانب الاقتصاد الإسلامي من خلال مبادئه القائمة على رؤية العالم الإسلامية التوحيدية.

1. مقدمة

لقد كرَّم الله سبحانه وتعالى الإنسان بنعمة العقل ونِعم السمع والبصر والفؤاد، ونعم أُخرى لا تحصى ولا تعد، يقول الحق تعالى (**وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ**)(سورة ابراهيم 34) ؛ وأكرمه بالخلافة على الأرض، يقول الحق تعالى (**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ**)(الآية 30:سورة البقرة) ، ويسر له الخير بتسخير كثير من مخلوقاته لتكون طوع إرادته، وأنزل له علماً يهتدي به وقوانين وسنن توازن هذا الكون ليكون مهيأً للتدافع من أجل عمارته. وبلغ هذا التكريم الرباني للإنسان غايته في حرية الاختيار العقدي إذ إنَّ هذا الإنسان قد هدي النجدين ليكون إمّا شاكراً وإمَّا كفورا، يقول الحق تعالى (**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**)(الآية 10: سورة البلد) ، ويقول (**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**)(الآية3: سورة الإنسان) ؛ ولم يُجبر على طريق بعينه ليتجه نحو الله سبحانه وتعالى الذي إن شاء لهدى الناس أجمعين، يقول الحق تعالى (**وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُواْ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ**)(الآية 31: سورة الرعد). لذلك ينشأ الناس وينشئون على حياةٍ متباينة تشكل في عمومها الواقع المجتمعي والحضاري بكل مشكلاته وقضاياه وإيجابياته وسلبياته ونجاحاته وإخفاقاته.

فالإنسان أينما كان، في وعيه فرداً كان أو جماعة أو مُجتمعاً بمعناه الضيق والواسع، نجد أنَّ هناك رؤية للعالم تتطور على الدوام لديه من واقع تراكم خبراته في التعامل مع قضايا الحياة، ومن إدراكه لما يدور حوله في العالم. إذن، ما هي رؤية العالم؟ وكيف تتشكل؟ وما علاقتها بالعلوم؟ الإجابة عن هذه الأسئلة تُشكِّل المحاور الأساسية لهذا البحث.

2.ماهية رؤية العالم

• باحث، دائرة العلوم الاقتصادية، معهد إسلام المعرفة، جامعة الجزيرة، السودان، بريد إلكتروني: elzeinaay@gmail.com

تعاظَم الاهتمام بقضايا رؤى العالم من قِبَل الفلاسفة والعلماء والباحثين وذلك حتى يتسنى وجود مخرج من فخ تشطُّر العلوم وعجزها عن توفير الإجابات الشافية للعديد من الأسئلة التي تتصل بالذات والكون والروح والخلق، بل حتى على مستوى القضايا الإنسانية عجزت تلك العلوم عن أن تأتي بحلول ناجعة لقضايا الفقر والتلوُّث البيئي والحروب الطاحنة والتمييز والعنصرية التي تظلل عالمنا المعاصر. ومن الطبيعي أن يكون أول ما يتم تناوله في هذا الشأن هو تعريف رؤى العالم، فمثلاً يعرفها آيرتس (Aerts) (وآخرون) بأنها "مجموعة متماسكة ومتناسقة من المفاهيم والنظريات التي تمكننا من بناء صورة تخيلية عالمية يمكن بواسطتها فهم أوسع نطاق من عناصر تجاربنا"[1].

كما هو واضـح فإنَّ رؤية العالم تتكون من مجموعة وليس وحدة منفردة من المفاهيم والنظريات وهو الشـيء الذي يشير ضمناً لوجود منظومة تضطرد وترتبط وتتناسق وتتماسك بعضها في بعض. وقطعاً تلك المنظومة لا توجد إلاَّ على أسـاس أركان مكونة لها، قد تكون فكرية أو دينية أو شـيئاً من كليهما. الأمر الآخر من رؤى العالم يتصـل بفهم إشـكاليات الواقع بكل تعقيداته وتنافر عناصره من حروبٍ طاحنة وأوبئة قاتلة وبيئات فاسدة وفقر مدقع وأنظمة حكم باطشة وكوارث ومجاعات؛ ومن ألوانٍ من البشر من قبائل شتى وألوان متباينة ولغات عدة. أيضـاً، وبصـورة أكثر تفصـيلاً يُعرِّف سـاير (Sire) رؤية العالم فيقول: "أنها التزام، وتوجه قلبي محض يمكن التعبير عنه كقصـة، أو مجموعة من الافتراضـات القبلية (قد تكون صـائبة، أو جزئياً صـائبة، أو خطأ تماماً)، التي نحملها (بوعي أو دون وعي، بطريقة متماسكة أو غير متماسكة) عن كنه الحقيقة الأساسي، والذي يُشكِّل القاعدة التي عليها نعيش، ونتحرك، ويكون عليها وجودنا"[2]. على أنَّ أول من أشار إلى مفهوم رؤيـة العـالم هو الفيلســوف الألمـاني إيمانويل كانت (Imanuel Kant) (1724-1804). علاوةً على ذلك فقد أُستِخدم المفهوم في الفلسفة الألمانية بوصفه "مجموعة من المعتقدات التي تؤسس وتشكِّل كل الأفكار والأفعال الإنسانية"[3]. إلاَّ أنَّ أول من تنـاول مفهوم رؤيـة العـالم بتركيزٍ وإفاضـــة هو الفيلســوف الألماني فيلهيلم ديلثي (Wilhelm Dilthey) (1833-1911) وذلك من خلال كتاباته الفلسفية، إذ يعتقد أنَّ[4] :

> رؤيـة العـالم تبدأ بصـــورة للكون ومن ثَمَّ ومن خلال علاقة مُعقدة بين الوعي الإنســـاني والعـالم الخـارجي ينبثق فهم أكثر دقةً وتفصـــيلاً عن؛ من نحن وما طبيعة ما يحيط بنا. بالإضـــافة إلى ذلك يتزايد معنى القيم، ومع تصـاعد الوعي وعلى أعلى مستوياته، يجد الفرد نفسـه على أعلى مرتبة من السـلوك الممارس – خطةٌ شـاملة للحياة وعلى أعلى مسـتويات من الحسـن وأعلى مسـتويات من أعراف الفعل الاجتماعي؛ أُنموذج مثالي للحياة الشخصية وحياة المجتمع.

---

1 ديدريك آيرتس وآخرون، رؤى العالم: من التفكك إلى التكامل (World Views: From Fragmentation to Integration) نسخة على الإنترنت قدمها كليمنت فايدال والكسندر ريغلر . 2007. http://www.vub.ac.be/CLEA/pub/books/worldviews.pdf

[2] انظر ساير جيمس، تسمية الفيل: رؤية العالم كمفهوم (Naming The Elephant: World View as a Concept) ، مطبعة داونز غروف، ايلنويس، 2004، ص 122.

[3] المصدر السابق، ص 23

[4] المصدر السابق ص 23.

إذن بالنسبة إلى ديلثي فإنَّ رؤية العالم تتخذ منحىً تطورياً يتأسس أوَّلاً على فهم الإنسان لطبيعة ذاته وطبيعة ما يحيط به، بل ويتطلع إلى عالمٍ علوي ؛ وإن كان ديلثي لم يشر إلى ذلك صراحةً إلاَّ أن تزايد معنى القيم وتصاعد الوعي بها يشير إلى مصدر عقدي سامٍ. من هنا يمكن القول أنَّ ديلثي قد استوعب حضور البعد الديني في تشكيل رؤى العالم ولكنه لم يرد أن يعبر عنه صراحةً، ولذلك فإنَّ تفسيره لرؤية العالم من الواضح أنَّه أقرب وأنسب لقالب المجتمعات اللادينية والمجتمعات التي تطوي الدين بعيداً عن الممارسة، الحياتية على السواء؛ أي أنَّها رؤية تتأسس على انفصال الدين عن الاجتماع البشري، وبالطبع تقود إليه.

على أنّ الرؤية تتشكل باستمرار رغم ثبات الإطار الكلي وذلك لأنّ الواقع المحيط والتفاعل معه والانفعال به ربما يولد أطراً فرعية قوامها التجارب البحتة؛ تلك الأطر الفرعية قد تتفق مع الأطر الكلية الصحيحة فتعضدها وربما تكون معاكسة لها تماماً فتضعف سلطانها ومن ثَمّ تتمحور رؤى العالم لتتخذ شكلاً آخر؛ أي أنّ هناك حراك دائم (وإن امتد إلى أجيال) في تشكل الرؤى، يُحدث بدوره حراكاً دائماً في المفاهيم والمناهج والنظريات والقوانين والفرضيات. الشاهد أنّ تلك المفاهيم والمناهج والنظريات والقوانين والفرضيات تجد مساحة كبيرة في فضاء الواقع فتتحقق تلقائياً وبغض النظر عن كونها صحيحة أم خطأ؛ ذلك أنّ تطبيقها يغرس في الواقع المجتمعي النموذج المطلوب لأنماط السلوك الذي بدوره يفرز بيانات ومعلومات تحقق تلك النظريات عند دراستها. بهذا الصدد، يعتقد كينز أنّ " أفكار الاقتصاديين والفلاسفة السياسيين أعظم تأثيراً مما قد تفهم؛ في حالتي صواب تلك الأفكار وخطئها".

3. تطور رؤية العالم الغربية

بداية تطور رؤية العالم الغربية يمكن إرجاعه إلى بداية ظهور المجتمعات هناك. لكن فيما يتصل بسياق علم الاقتصاد فسنكتفي بالرجوع إلى القرن السادس عشر حيث بداية ظهور ملامح الرأسمالية. ذلك أنه قبل اضمحلال نفوذ الكنيسة كانت معظم أوربا تدين بالمسيحية ولذا كانت بعض قيم الدين المسيحي تسود في ثقافات سكانها، فمثلاً الربا لم يكن يتم التعامل به، ولم تكن قيم التنافس المادي هي التي تتحكم في السلوك؛ ذلك أن الرضا بالقليل من الكسب والتقشف، مثلاً، كانا قيمتين دينيتين وسبيلاً للسعادة في الحياة الأخرى.

لكن الثورة الدينية التي تزعمها لوثر (Luther) في عام 1517م مهدت لظهور تيارات فكرية جديدة لأن المسيحية البروتستانتية الإصلاحية قد جاءت ببعض التحريفات في قيم الدين مما أدى إلى تنامي ظاهرة التحرر في الفكر الديني. مثلاً، نادت الثورة الدينية بضرورة العمل من أجل الربح وتعظيم الثروة وتقديسهما واعتبارهما سبيلاً للرضا الإلهي. أيضاً، في عام 1536م كان هناك زخماً ثورياً آخر هو التيار الديني الكالفني (Calvinist) الذي بشر بحق الثراء وحلل سعر الفائدة على إقراض المال. وكانت نتيجة تلك التحولات الفكرية أن ازدهرت التجارة واتسعت المدن وظهرت الطبقة البرجوازية ومنظمي الأعمال (entrepreneurs) وتوسعت الاستثمارات وتراكمت الثروات. ثم أعقب ذلك الثورة الصناعية وتطور صناعة الملاحة البحرية واتساع الأسواق إلى ما وراء البحار وتدفق الموارد الاقتصادية من المستعمرات.

مما سـبق يمكن القول بأن الثورات الدينية وبما نادت به من تعاليم جديدة تتعلق بقيم دينية تمس جوهر الحياة اليومية للأفراد قد أحدثت الآتي:

(1) تحولات مادية كبرى من زيادة في العمران وتراكم للثروات. هذه التحولات لها آثارها المباشـرة وغير المباشـرة في استدامة تلك الأوضـاع وإيجاد القبول لها من الأفراد والشعوب، وبالتالي استنهاض التيارات الفكرية المنبهرة بإيجابيات تلك التحولات.

(2) تحولات فكرية جريئة اقتدت بجرأة الثورات الدينية نفسها في المساس بتعاليم الدين المسيحي وقيمه والاستناد على حالة الشعوب المنهكة من جراء تعنت رجال الكنيسة وما أورثوه من أغلال على تلك الشعوب.

بنـاءً على ذلك يمكن القول أنّ علمانية الرؤية الغربية قد انطلقت منذ ذلك الوقت بتضـاؤل دور الدين (التعاليم الأساسية للمسيحية الحقيقية) في تشكيل الوعي المعرفي والثقافي والحضاري لدى تلك الشعوب. على أنّ انطلاقة ما يسمى بعصـر التنوير (Age of Enlightenment) ، من خلال عرابي فلسـفته من أمثال فولتير (Voltaire) (1694-1778) وجين جاكس روسو (Jean-Jacks Rousseau) (1712-1778) ودينيس ديدروت (Denis Diderot) (1713-1784) وديفـد هوم (David Hume) (1711-1776) وإيمـانويـل كـانـت (Immanuel Kant) (1724-1804) وجون لوك (John Locke) (1632-1704)، تمثل بداية لانطلاقة عهد الحداثة كرؤية عالمية اجتثت ما بقي من جوانب روحية وقيمية في العلم وصـناعته؛ ذلك أنّ هؤلاء الفلاسـفة أجروا مذهبهم التشـكيكي على كل شـيء و على كل مؤسـسـة ما لم يتم الاستدلال بالمنطق والتجربة على موضـوعية ذلك الشـيء أو تلك المؤسـسـة؛ بل إنهم قد أنكروا وجود الله سبحانه وتعالى بحجة أنّ براهين وجوده لا تخضع للتجربة. في هذا السياق يعتقد إيريكسون (Millard Erickson) أنّ "الحداثة تخلت عن المفهوم الروحي للحقيقة وأحلت المذهب الطبيعي محل مذهب ما وراء الطبيعة، وناصـــرت المذهب الإنســـاني والمذهب الفردي، واعتبرت أن المعرفة الإنسانية أكيدة وموضوعية وجيدة ويمكن الحصول عليها عن طريق المنهج العلمي"[5].

وعليـه ، فـإن المـذهب العلمي الـذي ركنـت إليـه رؤية العالم الغربية هو مذهب تجريبي لا يعترف إلاَّ بالعقل والمادة ولا يرى في الدين إلاَّ خرافات لا تناسـب عصـر الثورة العلمية. أدى ذلك إلى تعضـيد المذهب الإنسـاني الذي أكد بقوة على قدرة العقل البشري في التعاطي مع المشكلات وإيجاد الحلول المناسبة لها. وبالإضافة إلى ذلك، رسخ ذلك المذهب الإنساني وتوطدت أركانه وحدث انفصام تام بين الدين والعلم بعيد ثلاث هجمات على الدين هي[6] :

(1) الهجمة العلمية، وهي التي تلت نظرية دارون (Charles Darwin) (1809-1882) والتي قوَض فيها سـلطة الدين في عقول الناس، خاصـةً فيما يتصـل بمسـألة الخلق، فقبل "دارون" كان السـواد الأعظم من الغربيين يعتقدون أنَّ ما يشـاهدونه من العالم المادي يبرهن على وجود الله وأنَّ كل شـيء في الوجود يحتل مرتبة بعينها وفي ظل نسـق متحِد.

---

[5] انظر جيمس ب. ايكمان (James P. Eckman) في كتابه: حقيقة رؤى العالم:فهم إنجيلي لرؤى عالم بديلة (The Truth About Worldviews: A Biblical Understanding of Worldview Alternatives) . 2004. كروسوي ، إلونويس، ص 8.

[6] المصدر السابق.

ولكن بعد نشره لكتابه "أصول الأنواع Origins of Species " والذي زعم فيه أنَّ الصراع من أجل البقاء هو سمة عالم الطبيعة، ولذلك فإنَّ الموجودات العضـــوية ما هي إلاَّ نتاج تكيفها وفق المعطيات المتغيرة للبيئة. وعليه، فإنَّ الانتخاب الطبيعي يزيح كل ما هو غير مواتٍ للتكيف والتطور ويبقى ما هو قادر على ذلك.

(2) الهجمة الاقتصـــادية-الســـياســـية التي تزعمها كارل ماركس (Karl Marx) (1818-1883) صـــاحب الأيدلوجية الاشتراكية، وهو مِمن قاموا بأشَدَّ الهجمات السياسية والاقتصادية على الدين، فقد وصف "ماركس" الدين بأنه أفيون الشعوب وسبب تأخرها وبواسطته يتم استغلال الطبقة العاملة لأنها تعتقد أنَّ ذلك الاستغلال أمر سماوي لا مناص منه. وبالنسبة إليه، فإنَّ ثورة الطبقة العاملة فقط تستطيع أن تنتج المجتمع الشيوعي المثالي الذي سيسود في نهاية مطاف التأريخ.

(3) الهجمة النفسية والتي تزعمها سيجموند فرويد (Sigmund Freud) (1856-1939) والذي اعتبر فيها الدين عملية إسقاط نفسي ناتجة عن حالة اضطرابات عصبية.

على ضوء ما سبق، يمكن القول أنّ رؤى العالم الغربية هي رؤى بدأت بكونها علمانية بفصلها الدين عن العلم (عهد الحداثة) ثم قدست دور التجربة والحس والمادة كأساس للعلم. أمّا في الوقت الحاضر (عهد ما بعد الحداثة)، فقد انتهت تلك الرؤى إلى "لا دين" وإنما دين الهوى فحسب، يقول الحق تعالى (**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**) (الآية 23: سورة الجاثية). تلك الرؤى مكنت وتمكنت من خلال ما تشـــكّل من تصـــورات علمية (Paradigms)؛ تعرف بأنها نظام المعتقدات أو رؤية العالم أو الإطار العام الذي يوجه البحث وتطبيقاته في المجال العلمي المعين. وعند تناول التصـــورات العلمية وتصـــنيفها وارتباطها بالبحث العلمي ليس المقصود أن ينحصر التصنيف في طبيعة البحث أهي كيفية أم كمية لأن ذلك تصنيف بسيط يشير فقط لطبيعة البيانات المستخدمة. لكن الجوانب الأهم من ذلك تتعلق بالافتراضات والمعتقدات الأساسية القَبلية والتي تنبني عليها منهجية البحث. عليه، فإن التصـور العلمي ليس هو فقط فلسـفة علم وإنما يشـمل نظرية العلم الاجتماعي مثلاً "السـلوكية"، والإطار البحثي المرتبط بها ومن ثم إنزال ذلك الإطار الكلي منزلة التطبيق؛ فكل جانب من جوانب التصـور العلمي يتفاعل مع الجوانب الأخرى؛ مؤثراً فيها ومتأثراً بها، فمثلاً على مستوى فلسفة العلم تنشأ العديد من الافتراضات عن قضايا أساسية تتعلق بطبيعة حقيقة الوجود (Ontology) وماهية المعرفة (Epistemology).

4. رؤية العالم الإسلامية

مما ذكرنا آنفاً يتضح جلياً أنَّ نشأة الأفراد وتفاعلهم مع ما يحيط بهم من عوالم يولد لديهم تصورات رؤى عالم تتباين تبعاً لمتغيرات عديدة قد تتشكل هي نفسها في إطار رؤى العالم، مثلاً التنشئة الاجتماعية والمحيط الثقافي يلعبان دوراً كبيراً في تشكُّل تلك الرؤى، وفي الحديث عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصـــرانه كما تناتج الإبل من بهيمة جمعاء هل تحس فيها من جدعاء " قالوا : يا رســـول الله أرأيت الذي

يموت وهو صغير ؟ قال: " الله أعلم بما كانوا عاملين "[7] . فكل فرد في أي مجتمع له تصورات ذهنية عن محيطه الخارجي وله إجابات عديدة عن أسـئلة عديدة تؤثر على تلك التصـورات، وفي كثير من الأحيان تتبلور ذات الإجابات عن مصـادر مرجعية رئيسـة تتصـل بالمسـائل العقدية والدينية. ولذلك لكل فرد طابعه الخاص في أفعاله وردود أفعاله وعلاقته بالآخر وموقعه في المحيط الذي يعيش فيه وفي حجم الطاقة الذهنية والوجدانية والفكرية لديه، بل وفي نمط توالد تلك الطاقة وتحديد ما ينتج عن ذلك من دافعية لتحيد الأهداف والغايات المرجوة وطبيعتها ومن ثَمَّ كيفية تحقيقها من خلال تحديد المسـارات المثلى لذلك.

وطالما أنَّ رؤى العالم تتبلور على ذاك النهج فمن الواضـح أنَّ لها مكوّنان أحدهما ثابت (أو شـبه ثابت) أمَّا الآخر فهو متغيّر ويعتمد على ما يسـتجد من قضـايا في المحيط الخارجي والانفعالات معها وما يتم تحصـيله من نتائج تلك الانفعالات. أمَّا أهم ما يبرز من مميزات تلك الرؤى هو أنَّها كلٌ مُترابطٌ ومُتداخل لا يتجزأُ بعضها عن بعض وتتصل بعموم أوجه الاجتماع البشـري ولذلك فإنَّ أي خلل في جانبٍ من جوانبها يصـطحبه خللٌ واضـطرابٌ في جوانبها الأخرى، وفي النتائج النهائية للتدافع الإنسـاني على الأصـعدة المختلفة، وفي المُكوّن الذهني والوجداني والفكري للأفراد والمجتمعات والأُمم؛ أي في شـتى مناحي الأوجه الحضـارية. والشـاهد أنَّ المرجعيات الرئيسـة تُمثِّل المُكوّن الثابت لرؤى العالم وتُحدد منابع العلم فيها وتُحدد أيضـاً الإطار العام لها والذي بدوره يُقولب السـلوكيات ويحدد المسـارات للأفعال وردود الأفعال، ويصـيغ الإجابات ويبرز الحلول الكلية للمشـكلات. إذن طبيعة المُكوّن الثابت للرؤى ومدى صـلابة الإطار العام لها يحدد مدى وضوح رؤية العالم المعينة ومتانتها وتجزرها وطبيعة الحُلول التي تقدمها ونوعية الأفراد الذين يُنشئون في كنفها.

وأمَّا المُكوّن المتغيّر في رؤى العالم فيتمثَّل في الفكر الإنسـاني وتطوره وفي طبيعة الخبرات المكتسـبة وفي طبيعة الأثر النفسـي والاجتماعي والثقافي الناتج بدوره عن محصـلة طبيعة وقيمة نتائج تدافع الاجتماع البشـري. وعلى مسـتوى الفرد فإنَّ المُكوّن المتغيّر يتمثل في طبيعة وقيمة النتيجة النهائية للأفعال الصادرة عنه والحلول الجزئية التفصيلية للمشكلات التي يواجهها الفرد مع محيطه الخارجي؛ أي على قدرة الفرد في تكييف علاقة إيجابية فاعلة عن طريقها يمكن له أن يتعامل مع المشـكلات المختلفة بصـورة مُثلى تنتهي بتراكم إيجابي لمكتسـباته المختلفة. وعليه، فإن رؤى العالم بمكوّنيها الثابت والمُتغيَّر تُحدد طبيعة وقوة الدافعية (نحو الفعل) وروح الخلق والإبداع ومواجهة التحديات والفكر السـليم الذي ينتهي بقرارات سليمة تثمر تنميةً بشرية ومادية يتبعها سموٌّ روحيً.

أيضـاً، ومما يدعم جوانب رؤية العالم في الإسـلام هو كل ما يمكن أن تضـيفه أركان الإسـلام باعتبارها عناصـر إيمانية متكاملة، الإلتزام بها والعمل بمقتضـاها من قِبَل الفرد والجماعة والمجتمع والأمة متمثلة في قياداتها وعلمائها وأنظمتها الحاكمة، يمثل تعضـيداً مهماً لاسـتمرارية تلك الرؤية ولاسـيما حينما يقترن الأمر بمقاصـد الشـريعة الإسـلامية وضـرورة اتخاذها منهجاً عملياً في إصـدار الفعل على مستوى الفرد والجماعة والأمة وذلك فيما يتصـل بمواجهة التحديات والقضـايا المختلفة، بل وفي كل ما يتصـل بجوانب التدافع البشـري. ومن هنا يمكن أن نتبين أنَّ رؤية العالم في الإسـلام إنَّما

[7] انظر ابن عبد البر، أبوعمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، دار قتيبة، 1993، ص 371، والحديث صحيح.

هي رؤيـة تتشـــكل من خلال إطار مرجعي معياري لايمكن تجاوزه أبداً، وذلك بالنظر لجانبي الرؤية الثابت منها والمتغير. وإن كان الأمر كذلك فما هي المبادئ التي ترتكز عليها الرؤية العالمية الإسلامية؟

1.4 مبادئ رؤية العالم الإسلامية

1.1.4 التوحيد

كما ذُكِر آنفاً، فإنَّ لرؤيـة العالم مُكوِّنها الثابت الذي يحدد الإطار العام لها وبالنســـبة للإســـلام فإنَّ هذه الثوابت أو المبادئ هي التي ارتكزت عليها الشـــريعة الإســـلامية في رســـم منهج الناس في الحياة، يقول الحق تعالى (**قُلْ إِنَّ صَـــلاَتِي وَنُسُـــكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**)(الآية 162: ســـورة الأنعام). وأوَّل ما ارتكزت عليه هو مبدأ التوحيد والذي تتأســـس عليه المبادئ الأخرى، يقول الحق تعالى (**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ* اللَّهُ الصَّـــمَدُ* لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ* وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ**) (ســـورة الإخلاص). والتوحيد يبدأ بشـــهادة أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً رســـول الله؛ وتعني ألاَّ معبود بحق إلاَّ الله تعالى ومتضمناً ذلك ركنين أساسيين هما: أوَّلاً، نفي الأُلوهية الحقيقية عن غير الله سبحانه وتعالى، وثانياً، إثبات الأُلوهية الحقيقية لله ســـبحانه وتعالى. وأنَّ محمداً عبد الله ورســـوله لكافة الناس ومبلغاً للرســـالة التي جاءت بذلك التوحيد وأدى الأمانة فيها وجاهد في الله حق جهاده لتعلو رايته. وتتجســـد أهمية التوحيد في أنَّه ينداح على كل جوانب الحياة ولذلك هو الأســـاس الذي تقوم عليه رؤية العالم الإسلامية. بهذا الشأن يقول الفاروقي: "أنَّ التوحيد الذي هو الإقرار والشهادة بأن لا إله إلاَّ الله تحمل في معناها أعظم وأغنى المعاني في كل الإسلام، وأحياناً في ثقافةٍ بكاملها وحضارة بكاملها أو تأريخ بكامله. بل إنَّ كل تنوع الإســـلام وثروته وتأريخه وثقافته وتعلمه وحكمته وحضـــارته تكمن في هذه الجملة القصـــيرة"[8]. وبصـــورة أكثر وضـــوحاً وإبرازاً لكون التوحيد هو الرؤيـة العـالميـة يقول الفـاروقي "إنَّ التوحيـد هو الرؤيـة العـامـة للواقع وللحقيقـة وللعـالم وللكون وللزمن ولتاريخ ومصير الإنسانية"[9]. كما يُعبِّر أبو سليمان في ذات الشأن لإبراز دور التوحيد وأهميته في الحياة فيقول[10]:

> "إنَّ مبدأ توحيد الخالق الخالص، وما يترتب عليه من توحيدية الخلق التكاملية، هو الأساس الذي تَبني عليه الرؤية الإسلامية معنى الحياة والكون البديع، وعلى هذا المبدأ الأساس ترتكز مبادئ هذه الرؤية ومفاهيمها في غائية هذا الوجود وأخلاقيته، وفي استخلاف الإنسان وتكريمه بالقدرة على التصرف، والقدرة على الخيار وحرية اتخاذ القرار، وما يستتبع ذلك من مسؤولية الإنسان الروحية الإعمارية، لتحقيق الحياة الطيبة التي تحقق "ذات الإنسان"، وتستجيب لحاجته، وتتجاوب مع فطرته السوية، وتسمو به في معارج قيم الروح في صنع الخير، وطلب الحق، والتزام العدل، وارتقاء الإخاء والتكافل، وإبداع الإعمار، وحب السلام ".

---

[8] أنظر إسماعيل الفاروقي، جوهر الحضارة الإسلامية، مجلة المسلم المعاصر، ع 27، مج 7،ص 10، 1987.
[9] نفس المصدر السابق.
[10] عبد الحميد أحمد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة: القاهرة، 2009، ص 119.

إذن على هذا المبدأ العظيم تنجلي صورة بهية لنظام الكون وتبرز غائيته ووحدته وتكامليته في توازن كامل وتناسق متناهٍ، ودون خلل أو تنافر، ليبين كل ذلك قدرة الخالق في إبداع هذا الكون والسيطرة عليه وإحاطته تعالى بكل ما يجري عليه. وعلى هذا الأساس يدرك الإنسان موقعه في هذا الكون، وعلاقته به، والغاية من وجوده عليه، ومنتهى مسار حياته عليه. بالتالي، ومن خلال تلك الحقائق المبنية على التوحيد، يمكن أن نلقي الضوء على بعض المبادئ الفرعية.

1.1.1.4 غائية الخلق

إنَّ من نعم الله سبحانه وتعالى على الإنسان أن خلقه في أحسن تقويم، ونفخ فيه من روحه القدسية، التي لا يعلم أمرها إلاَّ هو سبحانه وتعالى، وأمر الملائكة والجن أن تسجد له، وعَلَّمهُ سبحانه وتعالى من علمه حيث باهى بهذا الإنسان ملائكته في السماء، وجعله حراً مختاراً حتى بشأن اعتقاده وعبادته. أيضاً، ومن أجل نعم الله سبحانه وتعالى أن جعل هذا الإنسان خليفته في الأرض؛ أي أنَّ الله سبحانه وتعالى قد جعله مكلفاً ومسؤولاً وسيداً في هذا الكون بمقتضى الأمانة التي تحملها والعلم الذي أُنزل له، والروح التي نُفِخت فيه، وبتسخير كل ما في الكون ليكون تحت سيطرته وإمرته، يقول الحق تعالى **(وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)**(الآية 3: سورة الرعد.) والتكليف والمسؤولية والإمارة على الكون تقتضي أن يقوم الإنسان بتعمير هذا الكون على علمٍ وبصيرة ودون إخلال لموازينه الدقيقة في شتى مناحيه؛ أي من خلال تعلم العلم الذي يفضي إلى فهم هذا الكون وكشف أسراره وأسرار العلاقة بين مخلوقاته والأنظمة والسنن التي تحكمها، وعندئذٍ يرتقي الإنسان على سلم العلم فيكون أكثر إدراكاً وتعظيماً لقدرة الخالق وسلطانه وجبروته، ثم يميل ويلين ليعبد الله سبحانه وتعالى أحق العبادة التي تليق بعظمته.

وعليه فإنَّ أول ما يترتب على التوحيد هو الالتزام به قولاً وفعلاً لتحقيق العبودية المُطلقة لله سبحانه وتعالى دون شريك له ظاهراً كان أو باطناً، يقول الحق تعالى **(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)**(الآية 56: سورة الذاريات). هذه العبودية المطلقة يجب على البشر فهم مدلولاتها وتقمصها وإنزالها في الواقع العملي في تصريف كل الأُمور التي تتصل بحياتهم إعماراً لهذا الكون وفق المنهج الذي ارتضاه الخالق، وليس على مناهج دنيوية ابتدعها وارتضاها الخلق؛ يبين القرضاوي مفهوم العبادة فيقول "العبادة كلمةٌ تتضمن معنيين امتزج أحدهما بالآخر فصار شيئاً واحداً. وهما نهاية الخضوع مع نهاية الحب. فالخضوع الكامل الممتزج بالحب الكامل هو معنى العبادة"[11]، أي أنَّ تعبد الإنسان يجب أن يستدركه في كل حركاته وسكناته في الحياة. ويفصِّل القرضاوي في شأن العبادة في صورها المختلفة، فمنها الدعاء، وإقامة الشعائر الدينية، ومنها الانقياد والإذعان الديني لما شرع الله من أحكام أحلَّ بها الحلال وحرَّم بها الحرام، ومراعاة حدود الله، ونظم شؤون، فلا يجوز لمن آمن بالله رباً أن يأخذ عن البشر النظم والأحكام والقيم والقوانين، يخضع لها ويُحكِّمها في حياته بغير سلطان من الله[12].

[11] انظر يوسف القرضاوي، حقيقة التوحيد (سلسلة عقائد الإسلام 2)، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 8، 2006، ص 24

[12] المصدر السابق.

والشاهد أنَّ من أهم ثمار هذه العبودية المُطلقة لله سبحانه وتعالى هي امتلاك القرار الشخصي والحرية السمحة وبذلك يكون حراً طليقاً دون قيود مبتدعة من قِبَل المتجبرين والمتسلطين على رقاب البشر بأهوائهم وانحرافاتهم في مجالات الفكر والثقافة والسياسة والتعليم؛ فيكون كل قول وعمل مُستصحبُ فيه البعد الرباني. وعندئذٍ تتحقق العبودية التي من أجلها خَلقَ اللهُ سبحانه وتعالى الإنس والجن. وإن كان الأمر كذلك، تتوفر الدافعية الايجابية والإقدام والقابلية على الحياة بفكرٍ سليم ووعي مستنير وقدرةٍ على الخلق والإبداع ومواجهة التحديات والتفوق على الصعاب، وعندئذٍ يتحقق عمران الأرض ويحيا عليها الإنسان حياة طيبة. يصور المودودي كيف أنَّ رؤية الإسلام العالمية التوحيدية الواضحة قد استطاعت أن تحدث نصراً مُبيناً لدولة الإسلام في المدينة وتُحدث تغييراً نوعياً في التفكير والمفاهيم والسلوك، فيقول[13]:

> وكان من بدائع هذا الفتح [الإسلام] أنه لم يصبح الناس مستسلمين للسلطان السياسي لهذه الدولة فحسب، بل انقلبت بسببه نظراتهم إلى الأشياء رأساً على عقب، وتغيرت مقاييسهم للقيم، وتبدلت أخلاقهم وخصالهم ظهراً لبطن، وحصل انقلاب جزري في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية، وطرأت على حضارتهم ومدنيتهم ثورة لم تغِّير وجه تاريخهم فحسب، بل غيَّرت مجرى تأريخ العالم بأسره. فانتهج الناس أفراداً وجماعات أُسلوباً جديداً للتفكير، ونمطاً جديداً من السلوك، وغايةً جديدة للحياة حُرِموها منذ مئات القرون في تأريخهم.

من الواضح أنَّ الدور الذي لعبه الإسلام في تكوين رؤية عالم توحيدية أثَّرت وامتد أثرها حتى اليوم في حياة الناس جمعاء، لهو دور عظيم، يمكن أن يُستنتج منه الآتي:

1. قوة ومتانة (خاصةً فيما يتعلق بالمكوِّن الصلب) ووضوح تلك الرؤية التوحيدية، وقدرتها على إحداث التغيير الإيجابي النوعي.
2. قدرتها وقابليتها على الاستمرار من خلال تزايد الناس المقبلين علي التعرف على الإسلام واعتناقه لأنه يلبي حاجتهم الروحية والنفسية، وهو ما قد يفسر حتمية سيادة شأن رؤيته التوحيدية في نهاية الأمر.

وطالما كانت لأي رؤية قدرة على تغيير المفاهيم والتصورات والافتراضات القبلية، فلابد أن ينعكس ذلك تأثيراً على طبيعة المناهج العلمية وعمليات تطوير المعرفة التي تُتَبع في شتى مناحي العلوم ومباحثها. والسؤال إذن: ما انعكاس رؤية العالم على علم الاقتصاد.

5. انعكاسات رؤية العالم على علم الاقتصاد:

لا شك أنَّ انعكاسات رؤى العالم على مختلف العلوم تبدأ من الافتراضات الأساسية التي على ضوئها يبدأ العلماء في عملية البحث العلمي. فمثلاً في حقل العلوم الاجتماعية، فإنَّ تلك الفروض تمثل حجر الأساس الذي تقوم عليه أركان العملية المعرفية العلمية التي تهدف إلى الوصـــول إلى نظريات وقوانين لتفهم الوقائع الاجتماعية وتفسـيرها والتنبوء بما تؤول إليه حالة مفردات تلك الوقائع تحت الدراسة عند حدوث تغيُّرات في المتغيرات الحاكمة لحركية الوقائع المختلفة. الشاهد أنَّ تلك

---

[13] انظر أبو الأعلى المودودي، الإسلام اليوم (سلسلة منشورات الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية – رقم 44)، 1403هـ-1983م.

الافتراضـات الأسـاسـية لا يمكن بأي حال أن تصـدر من الباحث من فراغ ودون تحيز، عن وعي أو دون وعي، ناتج عن الحالة النفســية للباحث والتي تشــكلت بدورها في كنف واقعٍ تحكمه مرجعيات دينية وعقدية وفلســفية؛ حتى وإن اهتزت وتضـعضعت صورة تلك المتغيرات. تلك المرجعيات هي ما وصفناه آنفاً بالمُكوّن الثابت من رؤية العالم. عليه، يمكن الجزم أنَّ التحيزات العلمية التي تنعكس على مسـيرة العلوم، في منهجيتها ومباحثها وقوانينها ونتائجها وتطبيقاتها، أمرٌ على الأقل تلقائي إن لم يتعمده الباحث. الحقيقة التي لا يمكن التغاضي عنها هي أنه حتى في حالة فصل الدين والقيم عن العلم تنشأ حالة ("اللا" دين) التي تعبر هي ذاتها عن حالة عقدية أو أيديولوجية تؤثر بدورها في حالة الوعي و"اللا" وعي بالنسـبة للتكوين النفسي للفرد والمجتمع.

وفيما يتصــل بالعلوم الاجتماعية فقد هيمنت الوضــعية (Positivism) كتصــور علمي على تطورها وذلك منذ أن أرسـى أسـاسـها الفيلسـوف وعالم الاجتماع الفرنسـي أوغسـت كومت (Auguste Comte) في القرن السـابع عشـر. اعتقد كومت أنّ المجتمعات تمر بثلاث مراحل لإبراز تفســيراتها العلمية[14]. المرحلة الأولى والأقل شــأناً، كما قال بذلك كومت، تسود التفسيرات الدينية. وفي المرحلة الثانية، المستنيرة بعض الشيء، تسود تفسيرات ماورا الطبيعة والتفسيرات الفلسفية. وفي المرحلة الأخيرة، الأعلى شـأناً، تسود التفسيرات العلمية الوضعية. وكونه كان مولعاً بمناهج العلوم الطبيعية، فقد نادى كومت بتطبيقها في حقل العلوم الاجتماعية، واستخدام المنهج العلمي في التحقق من صحة نظريات السلوك الإنساني.

وحالما رسخ أمر العلوم الاجتماعية على منهجية العلوم الطبيعية توغلت فيها الوضعية، وكان لزاماً على تلك العلوم أن تلتزم بقواعد العلم المنضبط في إطار الحس والمادة دون أن يركن إلى أي معيارية تستند إلى الدين أو الأخلاق. ولمَّا كان فلاسفة وعلماء الاقتصاد أمثال:

Adam Smith 1723-1790 و Malthus 1766-1834 و Ricardo 1772-1823 و Marx 1818-1883 و Jevons 1835 - 1882 و Carl Menger 1840-1920 و Alfred Marshal 1842-1924 ...

ليسوا في معزل عن ذلك المحيط العلمي والثقافي والحضـاري، نستطيع القول أنَّ علم الاقتصـاد قد نشـأ وتطور وفقاً لمنهجية الوضــعية التي لازمت الرؤية الحداثية التي، بدورها، تبنت المذهب الإنســاني وقدســت قدرات الإنســان العقلية وعززت مبدئي الحرية والفردية. وهكذا، وعلى هذا النهج تطور علم الاقتصـاد (الرأسـمالي) الوضـعي وأصـبح أكثر العلوم الاجتماعية قرباً من العلوم الطبيعية[15] وما ذلك إلاَّ لأنه حذا حذو العلوم الطبيعية في عملية البناء النظري الذي يقوم على استخدام الرياضيات في صياغة النماذج الاقتصادية لفهم وتفسير الظواهر الاقتصادية.

لكن أمر النمذجة الرياضية اقتضى تجريد إبعاد البعد الديني والفلسفي والأخلاقي من صياغة المشكلة الاقتصادية، ولذلك فإنَّ عالِم الاقتصــاد الذي يراقب الظاهرة الاقتصــادية لدراســتها مُواجه بحجم ضــخم من البيانات والتي ظاهرياً تبدو ليست ذات معنى أو دلالة. عليه، فإنَّ أوَّل خطوة لاكتشاف أنساق دلالية من ذاك الحجم الهائل من البيانات هي تطوير نظرية

---

[14] انظر: هاريت مارتينيو (Harriet Matineau) ، 2000، فلسفة أوجست كومت (Auguste Comte) الوضعية (The Positive Philosophy of Auguste Comte)، Bell and Sons: London. ، ص.257

[15] صار يطُلق على علم الاقتصاد (باللغة الإنجليزية) ملكة العلوم الاجتماعية (Queen of Social Science)، بل إنه العلم الاجتماعي الوحيد المُضمَّن لدى مؤسسة نوبل لنيل جائزة العلوم في تطوراته الرائدة.

أو نظريات لتوضيح الأوجه المختلفة للسلوك البشري، وذلك يتطلب أحد أمرين أو كليهما معاً بالنسبة إلى اختيار المنهجية المناسبة وانطلاقاً من الوقائع الاقتصادية محل الدراسة. أولاً، إمَّا البدء بالتجريد النظري من الوقائع بغية الوصول إلى أنموذج منطقي يمكن عن طريقه وباستخدام الحجج المنطقية الوصول إلى تعميمات منطقية، ومن ثمَّ صياغة تعميمات نهائية عن الوقائع محل الدراسة، عن طريق التفسير النظري؛ ومجمل هذه العملية هو ما يعرف بالاستنباط. ثانياً، يمكن الوصول إلى ذات النتائج النهائية والتعميمات بواسطة الطريقة الإحصائية حيث يمكن ذلك باستخدام التجريد التجريبي للوصول إلى تصميم تجريبي، ومنه الوصول إلى أنموذج إحصائي يمكن استخدامه في تحليل وقائع الظاهرة الاقتصادية.

الشاهد أنّ المذهب الإنساني الذي تبنته العلوم الاجتماعية، وفيما بينها علم الاقتصاد، قد نحى نواحٍ ثلاث فيما يتصل بقدر قدرات الإنسان العقلية في دراسة المشكلات وإيجاد الحلول لها. أولاً، هناك اتجاه قال بنسبية تلك القدرات العقلية ومن ثمَ محدوديتها وبالتالي لابد من إيجاد آليات تسعفه في التوصل إلى حلول، وذلك مثل آلية السوق في تحديد الأسعار من خلال العرض والطلب، كما هو الحال في الاقتصاد الرأسمالي. ثانياً، الاتجاه الذي اعتقد بالقدرة المطلقة لقدرات الإنسان العقلية في التوصل إلى الحلول، كما هو حال التخطيط المركزي في الاقتصاد الاشتراكي. الاتجاه الثالث هو المختلط ما بين الاتجاهين السابقين حيث يؤمن بقدرات الإنسان العقلية المطلقة، أحياناً، ويؤمن بكون تلك القدرات مقيدة، أحياناً أُخرى[16].

1.5 رؤية العالم والاقتصاد

وفيما يتصل بهذا السياق، فسينحصر حديثنا على الاقتصاد الرأسمالي (والاقتصاد الإسلامي) الذي ينتهج مبدأ كفاءة قدرات الإنسان في إيجاد الحلول المثلى لمصالحه الخاصة. أمَا فيما يتصل بالمصلحة العامة فيؤمن ذات النظام بنسبية كفاءة قدرات الإنسان في التوصل للحلول المناسبة والمثلى. وكأحد العلوم الاجتماعية، يهتم الاقتصاد بالسلوك الإنساني إزاء إنتاج وتوزيع وتبادل واستهلاك السلع والخدمات وتكوين الثروات وتوزيعها وتراكمها. لقد عرّف روبنز الاقتصاد بأنه "العلم الذي يهتم بدراسة السلوك الإنساني كعلاقة بين الأهداف المتعددة والوسائل النادرة ذات الاستعمالات البديلة". وبناءاً على مذهب الإيمان بقدرات الإنسان العقلية، فقد استند الاقتصاد في دراسته للسلوك الإنساني على مبدأ "الإنسان الاقتصادي الراشد (Rational Economic Man)". ويشير هذا المبدأ إلى أنَّ الإنسان في تعاملاته التي تتصل بالإنتاج والاستهلاك والتبادل يسلك سلوكاً اقتصادياً يتصف بالأمثلية (Optimization) في تعظيم المتعة (Maximization Utility) المستهدفة من وراء تلك التعاملات؛ أي الأخذ في الحسبان حسابات الدخول والمنصرفات النقدية فقط ، ودون التأثر بالأهواء الشخصية والمعايير القيمية. كل ذلك يتم من أجل صياغة النظريات والقوانين والنماذج التي يمكن على ضوئها فهم المشكلة

[16] إنَّ من أهم ما تجدر الإشارة إليه لتوضيح أثر تباين انعكاسات رؤى العالم على الاقتصاد وعجز كل تلك الرؤى عن الاتيان بتنظير علمي يساعد على فهمٍ مشكلات المجتمع الاقتصادية هو تعدد تلك الرؤى والاتجاهات التي تحاول التطوير عل مستوى التنظير العلمي كلما ظهرت مشكلة اقتصادية مستعصية، فمثلاً تطور الاقتصاد عل النحو الآتي: خلال القرن الثامن عشر تطور الاقتصاد السياسي الكلاسيكي، وخلال القرن التاسع عشر تطور الاقتصاد الماركسي والاقتصاد الكلاسيكي التجديدي، ومع بداية القرن العشرين تطور الاقتصاد المؤسسي وفي ثلاثيناته تطور الاقتصاد الكينزي وفي سبعيناته الاقتصاد النقدي، ومع بداية القرن الحادي والعشرين ظهر تيار الاقتصاد السياسي الحديث واقتصاد العقلانية الاقتصادية.

الاقتصادية وإيجاد الحلول لها والتنبوء بمستقبل متغيرات تلك المشكلة. وحقيقةً فإنَّ الإطار العام لتلك المشكلة ينحصر في الإجابة عن ثلاثة أسئلة:

(1) ما السلع والخدمات التي ينبغي أن تنتج؟

(2) ما الكيفية التي يمكن بها إنتاج السلع والخدمات؟

(3) ولمن يتم إنتاج السلع والخدمات؟

للتعامل مع المشكلة الاقتصادية المتمثلة في الأسئلة آنفة الذكر، واستناداً على مبدأ الإنسان الاقتصادي الراشد، فقد استند علماء الاقتصاد على عدد من المبادي الفرعية ومن أهمها: الندرة والمنفعة والتكلفة البديلة. عليه، فإنّ الإنسان وبسلوكه الراشد يستطيع أن يحدد لنفسه الاختيار الأمثل وبمطلق حريته؛ فهو يتخذ قراراته على ضوء معلومات كافية يصل من خلالها إلى أمثل وضع من حيث تعظيم المنفعة المترتبة على ذلك السلوك، مثلاً مستهلكاً أو عاملاً أو مدخراً أو مستثمراً، ...الخ.

على تلك المبادئ استند علم الاقتصاد، خاصة الاقتصاد الجزئي (Microeconomics) حيث تمثل نظرية سلوك المستهلك (Behavior Consumer) العمود الفقري له. وعلى تلك الأسس تتم التنشئة الاقتصادية الاجتماعية للفرد في ظل نظام الاقتصاد الرأسمالي ويدير شؤون حياته عليها؛ وعلى تلك الأسس يتحدد نوع المنتجات من السلع والخدمات وتتحدد أنماط الاستهلاك وطبيعة الاستثمارات؛ وعلى تلك الأسس تتحدد آلية الأثمان من خلال عوامل العرض والطلب. فإنتاج الخمور وإدارة النوادي الليلية للمقامرة والرَّذيلة تعتبر خيارات راشدة طالما كان هناك طلب عليها وطالما أبرزت جدوى ربحيتها. أمّا المصلحة العامة للمجتمع، وبحسب ما فصَل في ذلك سميث في كتابه ثروات الأمم، فتتحقق على ضوء مبدأ عدم التدخل (Laissez-faire) الحكومي عن طريق اليد الخفية (Invisible Hand) كمحصلة لسعي الأفراد لتحقيق مصالحهم الشخصية.

أمّا ندرة الموارد الاقتصادية كمبدأ أساس في علم الاقتصاد، فتأتي كنتيجة حتمية لمبدأ الحرية الفردية المطلقة. فطالما أنّ الإنسان يتمتع بمطلق الحرية في اختياراته المتعلقة بإنتاجه واستهلاكه من السلع والخدمات، فمن الضرورة بمكان أن تستعر الأنانية في النفوس لمزيدٍ من التكاثر المادي وبالتالي تصبح الموارد الاقتصادية نادرة. الشاهد أنّ هذا المبدأ يستند على كون الندرة مفهوم مطلق. وهناك مبدأ آخر يتصل بمبدأ الندرة وهو مبدأ التكلفة البديلة (Opportunity Cost) الذي يشير إلى أن أي قرار يختص باختيارات الفرد تترتب عليه تكلفة بديلة؛ هي عبارة عن الفرصة التي كان يمكن أن تكون خياراً بديلاً.

وفيما يتعلق بجانب المعاملات المالية (وكل القطاع النقدي للاقتصاد) نجد أنّ تحليل التعامل بالربا (سعر الفائدة) الذي نادى به لوثر إبان ثورته الدينية الإصلاحية، قد هيمن على كل النظام المالي الرأسمالي؛ مما جعل المال سلعةً تباع وتشترى آناء الليل وأطراف النهار ويقوم عليه كل النموذج الاقتصادي الرأسمالي، خاصةً في مجال الائتمان والتمويل، بل

إنّ قطاع الاقتصـــاد الحقيقي تقوم آليته على ســـعر الفائدة من خلال تحديده لحجم الأموال المســـتثمرة وتوزيع تلك الأموال وتوظيفها بين مختلف قطاعات ذلك الاقتصاد.

وبصورة عامة، نشير إلى أهم أركان الاقتصاد الرأسمالي في سعيه لحل المشكلة الاقتصادية كالآتي:

أ. الملكية الخاصـة، ويقصـد بها امتلاك المشـاريع الإنتاجية وإدارتها والتمتع بعوائدها من قِبَل أفراد المجتمع، وحسـب قدراتهم، وبمطلق الحرية والتصرف في تحديد أنواع الاستثمارات وأنواع السلع والخدمات.

ب. حرية وسيادة المستهلك، وتعني أنّ للمستهلك مطلق الحرية في التصـرف في أمواله استهلاكاً أو ادخاراً ودون قيود في طبيعة السـلع والخدمات المسـتهلكة أو كيفية الادخار طالما أن سـلوكه راشـد ذو طبيعة اقتصـادية؛ ويهدف إلى تعظيم المنفعة.

ت. تحجيم دور الدولة في النشـــاط الاقتصـــادي، ويعني أن دور الدولة ينحصـــر فقط في حفظ النظام، وأن يترك الأمر برمته لآلية السوق من خلال نظام الأسعار الذي يحدده العرض والطلب من السلع والخدمات.

ث. اسـتخدام سـعر الفائدة (ربا البنوك) في المعاملات المالية التي تقوم بها كل قطاعات الاقتصـاد؛ أي اسـتخدام سـعر الفائدة كآلية لتوزيع الموارد المالية فيما بين مختلف قطاعات الاقتصاد.

وبالمقارنة فإنَّ الاقتصـاد الإسـلامي هو اقتصـاد معياري، لا يعترف بوصـف الوقائع الاقتصادية وفهم اشكالاتها دون اعتبار لمعايير قيمية يفرضـها الدين، وسـنن تعمل لإعادة موازين الأمور في كل التدافع البشـري. ولذلك، فإنَّ من أهم أركان الاقتصاد الإسلامي، الآتي:

أ. يعترف الإســـلام بـالملكيـة الفرديـة لإنَّـه لا يحرم النـاس ســـعيهم وجهدهم ولكنـه لم يعط الأفراد حريـةً مطلقة في التصـرف في ثرواتهم وأموالهم، بل حرية مقيدة بحدود تدعم المصـالح وتدرأ المفاسـد؛ فالمال مال الله وما الناس إلاَّ مُستَخلفون فيه، وينبغي التصرف فيه وفق شروط استخلاف تراعى على الوجه الأكمل.

ب. يعترف الإسـلام بتدخل الدولة في النشـاط الاقتصـادي، لأنَّ من أهداف الاقتصـاد الإسـلامي هو توسـيع وتحقيق المصلحة العامة في حدود ما أحل الله وحرَّم؛ وعلى ولي الأمر المسؤولية عن إنفاذ التدخل وكيفيته وآليته من أجل تحقيق المصلحة العامة.

ت. الاقتصـاد الإسـلامي يقوم على المشـاركة، وليس على الربا لأنه اقتصـاد تكافل وتراحم، يهدف لتوزيع الثروة على أكبر قاعدة من الناس للقضـاء على الفقر ولسد الحاجات. يشهد العالم اليوم نجاحات المصارف ومؤسسات التمويل الإسـلامية التي تعمل وفق صيغ المعاملات الإسلامية، حتى أنَّ نجاحاتها تلك قد كفلت لها أن تُؤسس لتقدم خدماتها في أكبر مراكز المال العالمية مثل لندن ونيويورك.

ولعل مايميز رؤية الإسـلام للعالم هو الجانب العملي الذي يُؤطر له معيارياً، فمثلاً، وبالرغم من إشـكالية عدم توافر البيئة المتكاملة إسلامياً لتطبيق مبادىء الاقتصـاد الإسـلامي، نجد أنَّ أحد أهم أوجهه ممثلاً في الصـيرفة والتمويل الإسلامي قد أصبح واقعاً ملموساً وأنموذجاً يحتذى به في النجاح، وهذا ما تشـهد له التجربة من تطور وانتشار ليس فقط على مستوى

العالم الإسلامي بل وبقية العالم أجمع، خاصةً الغربي منه والذي ما فتئ يعتز بموروثه العلمي والحضاري واعتباره منتهى للتأريخ.

6. خاتمة

بناءً على ذلك فإنَّه يمكن القول أنَّ رؤية العالم تبدأ بتصـــور للكون ، ومن ثَمّ من خلال تعقد وتشـــابك العلاقة بين الوعي الإنساني والعالم الخارجي يتشكل معنى يتزايد وضوحاً لإجاباتنا عن ماهية ذاتنا وماهية طبيعة الكون من حولنا. إلاّ أنّ تلك الإجابات تتحدد بصـــورة قاطعة ودقيقة في ظل وجود مرجعية دينية صـــحيحة تقدم الإطار الكلي (التوحيد) لكل ما يتصل بنا وبموقعنا في الكون وعلاقتنا به، وما نؤول إليه في النهاية وما بعد تلك النهاية.

وطالما أنَّ رؤية العالم تحدد (وتتحدد) بالإطار المرجعي العام لها ممثلاً في المُكوِّن الثابت منها، فلا بد أن تتشـــكَّل لدى العلماء والباحثين افتراضات قبلية تؤثر هي الأخرى في صناعة ومسيرة العلم عن طريق تحيُّزات علمية حتمية (بوعي أو دون وعي). فيما يتصل بعلم الاقتصاد، فإنَّ أهم انعكاسات تلك التحيزات تتجلى في الافتراضات الأساسية التي بُنيَت عليها النظرية الاقتصـــادية، مثل تعظيم المنفعة، وأخذ التكلفة البديلة في الاعتبار عند تحديد الخيارات المثلى وفقاً لفلســـفة عقلانية سلوك الإنسان الراشد. وهناك الكثير مما يمكن أن يضاف من شواهد انعكاسات رؤية العالم على علم الاقتصاد بأفرعه المختلفة وهناك الكثير مما يمكن أن يستشهد به من نقد توجه لعلم الاقتصاد في جزئياته المختلفة. ولكن حسبنا القول أنّ المنظومة العلمية الغربية وبمختلف جوانبها المنهجية والأخلاقية تكابد أزمة عويصة ألقت بظلالها على كثيرٍ من جوانب الحضـــارة والفكر. ولذلك هناك الآن من العلماء والمفكرين في الغرب ذاته ومن غير المســـلمين (ولا غرابة في ذلك) ممن يستشعرون تلك الأزمة وضرورة العمل على تلافي مآلاتها. تصف ساهتورس (2003) الأزمة التي نتجت عن انفصام الجوانب الروحية عن العلم فتقول "الوعي ليس نتاج ناشـــئ عن التطور المادي، بل العكس تماماً فهو مصـــدر أي تطور مادي. ولذلك أعتقد أنَّ الجوانب الروحية والعلم قد تم فصلهما لأسباب تاريخية، ولقد حان الأوان لتوحيدهما في رؤية عالم واحدة تستطيع أن تستلهم أفضل ما لدينا من الإرث الروحي وأفضل ما لدينا من الإرث العلمي"[17]. وإن كان الأمر كذلك، فمن الضرورة أن يسعى علماء المسلمين لتمحيص العلوم الغربية وبناء منهجية وإنتاج علوم وواقع علمي وفكري إسلامي للخروج من تلك الأزمة.

[17] أنظر إليزابيت ساهتوريس، ما بعد دارون (After Darwin) ، مقال عن برنامج تلفزيوني (http://www.big-pictures.tv/transcripts/Elisabet Sahtouris.pdf)

المصادر والمراجع

1. **القرآن الكريم**
2. ابن عبد البر، أبوعمر يوسف بن عبد الله بن محمد، الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار، دار قتيبة، 1993.
3. أبو الأعلى المودودي، الإسلام اليوم (سلسلة منشورات الإتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية – رقم 44)، 1403هـ-1983م.
4. إسماعيل الفاروقي، جوهر الحضارة الإسلامية، مجلة المسلم المعاصر، ع 27، مج 7، 1987.
5. إليزابيت ساهتوريس، ما بعد دارون (After Darwin)، مقال عن برنامج تلفزيوني (http://www.big-pictures.tv/transcripts/Elisabet Sahtouris.pdf)
6. جيمس ب. ايكمان (James P. Eckman) في كتابه: حقيقة رؤى العالم:فهم إنجيلي لرؤى عالم بديلة (The Truth About Worldviews: A Biblical Understanding of Worldview Alternatives). 2004. كروسوي، إلونويس.
7. ديدريك آيرتس وآخرون، رؤى العالم: من التفكك إلى التكامل (World Views: From Fragmentation to Integration) نسخة على الإنترنت قدمها كليمنت فايدال والكسندر ريغلر 2007 . http://www.vub.ac.be/CLEA/pub/books/worldviews.pdf
8. ساير جيمس، تسمية الفيل: رؤية العالم كمفهوم (Naming The Elephant: World View as a Concept)، مطبعة داونز غروف، ايلنويس، 2004.
9. عبد الحميد أحمد أبو سليمان، الرؤية الكونية الحضارية القرآنية: المنطلق الأساس للإصلاح الإنساني، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة: القاهرة، 2009.
10. هاريت مارتينيو (Harriet Matineau) ، 2000، فلسفة أوجست كومت (Auguste Comte) الوضعية (The Positive Philosophy of Auguste Comte)، George Bell and Sons: London. 1896.
11. يوسف القرضاوي، حقيقة التوحيد (سلسلة عقائد الإسلام 2)، مكتبة وهبة، القاهرة، ط 8، 2006.